عبـد الرشـيد إبـراهيم

(١٨٤٦-١٩٤٤م=١٢٧٣-١٣٦٤هـ)

الشيخ الأمة

obeikandl.com

هذا الشيخ في قامة «جمال الدين الأفغاني»،كان مثله معجزة خارقة،حوت حياته الكثير من غرائب الشجاعة وعجائب الجهاد، حقق بمفرده ما تعجز عن تحقيقه الجماعات.

هو الداعية الرحالة المجاهد الصابر الدؤوب: «عبدالرشيد إبراهيم» الذي تعود بنا مظاهر جهاده ودفاعه عن الإسلام والعمل على نشره في ربوع العالم، بسير رجال الإسلام الأوائل الذين نشروا الإسلام شرقاً وغرباً وأضاؤوا بنوره ظلمات القلوب والعقول.

جهاد متواصل:

كان «عبدالرشيد إبراهيم» في كل أدوار حياته مثال المجاهد المتواصل الكفاح، ومثال عالم الدين الذي لم يكتف بالوعظ والإرشاد وإلقاء الخطب، وإنما حول علمه وإيمانه إلى سلاح ضد أعداء الدين في روسيا القيصرية، ثم يرحل إلى الحجاز ليتعمق في دروس الشريعة واللغة، ويصل إلى تركيا ليوجه جهود الخلفاء إلى نصرة المستضعفين من أبناء الإسلام، ويسافر إلى الهند والصين واليابان ليعلن كلمة الله في ربوع نائية لا تكاد تعرف عن الإسلام إلا القليل. وبمنطقة العذب الجميل هدى الله آلاف القلوب إلى اعتناق الدين الإسلامي.

كان داعية غيور يشرح شعائر الوضوء والصلاة والزكاة، ويبني المساجد، باذلا الجهد في جمع التبرعات من شتي ربوع الإسلام، ليعلن كلمة الله في بيوت أذن الله أن تُرفع ويذكر فيها اسمه.

كان ميدان دعوته ونشاطه في أقاصي آسيا، في بلاد الصين واليابان وكوريا ومنشوريا، حيث ذهب إلى هناك لنشر نور الإيمان والهداية.

وإذا كان «جمال الدين الأفغاني» ثائراً مضطرماً يريد أن يغير معالم الدنيا في لحظة عين، فيشعل الثورات مختاراً جنودها من تلاميذ أمدهم بروحه الثائرة فأصبحوا مراجل غضب يصبون النار على المحتلين والمستبدين. فإن «عبد الرشيد إبراهيم»

آثر أن يكون مجاهدا يدعو إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة، يؤلف في صمت، ويعظ في هدوء، ويرحل في مثابرة، ويدعو الله تعالى أن يؤتى جهاده ثماره الطيبة التى تعم بالخير على الإسلام.

وأثمر جهده بالتمكين للإسلام في أماكن نائية كانت تسبح في ظلمات الوثنية والجهل حتى في العصور الحديثة، فقد استطاع «عبدالرشيد إبراهيم» سنة ١٩٣٩م أن يجبر البرلمان الياباني على الاعتراف بالإسلام واحدامن أديان الدولة الرسمية، ثم بنى الشيخ مسجدين تنطلق من مأذنهما نداء «الله أكبر.. الله أكبر».

المولد والنشأة:

وُلِدَ «الشيخ عبدالرشيد» بمدينة «تارا بسيبيريا» سنة ١٨٤٦م- ١٢٧٣هـ، في أسرة تعتز بإسلامها حين كانت القيصرية الروسية في قمة طغيانها العنصري، وحيث كان المسلمون في مجاهل سيبيريا يعانون أشق أنواع الظلم والاضطهاد. ولم يزدها هذا الاضطاد العنصري إلا تمسكاً بدينها القويم. تلقى دروسه الأولى في هذا الجو الذي زاده إصرارا على النهل من منابع الشريعة والثقافة الإسلامية، فارتحل وهو في الثانية عشرة إلى مكة. وهناك راح يغذي نفسه بمصادر العربية الصحيحة ويدرس الفقه والشريعة، وكانت كل خطاه ما بين مكة والمدينة تذكره بأمجاد الإسلام الأولى، وجهاد المسلمين الأوائل لنشر كلمة الله، فتوقد في صدره حمية مشتعلة وغيرة متيقظة، وعز عليه وهو في غربته حال أبناء وطنه سيبيريا وما يعانون منه، وما تتعرض له عقائدهم من شبهات باطلة وأراجيف مختلفة، دون أن يجدوا من يميز لهم الخبيث من الطيب في منطق واضح وإيمان شديد، فقرر أن يعود إلى بلده، بعد أن تزود بحصيلة وافية من المعارف الدينية الصحيحة.

تصحيح المفاهيم:

في جد واجتهاد العالم العابد راح «الشيخ عبدالرشيد» يصحح المفاهيم المغلوطة ويوضح حقائق الدين، فالتف حوله الباحثون عن الدين الحق وذاع

صيته، وأحبه الناس مدافعا عن الدين داعية سمحاً بليغاً، ولم تمض غير سنوات حتى تم اختياره قاضيا بالمحكمة الشرعية، ثم وكيلا للإفتاء الديني.

ولم يتخذ هذا المنصب وسيلة للراحة أو المكانة والتقرب من ذوي السلطان، بل جعل منصبه أداة توجيه وإصلاح لخير لمسلمين، فراح يُطالب السلطات القيصرية بوجوب العمل على مساعدة المسلمين ومساواتهم بغيرهم في الحقوق والواجبات. ولم يثنه عن هذه المطالب ترغيب أو وعيد، وظل يناضل من أجل هذه الحقوق.

وسافر إلى استانبول عاصمة الخلافة العثمانية يوضح ما يتعرض له المسلمون في بلده من ظلم واضطهاد وحرمان من أبسط الحقوق.

وهناك عُرضت عليه المناصب، ولكنه آثر أن يكون بين أبناء وطنه يدافع عنهم ويقوم بواجبه تجاههم، فعاد ليواصل الكفاح والجهاد، وعندما لم يوفق في الحصول على ترخيص بإصدار صحيفة يكتب فيها وتكون بمثابة منبر يخاطب منه المسلمين ويدافع عنهم، أصدر عدة رسائل باللغة التركية القاذانية، وراح تلاميذه من الطبقة المستنيرة يجمعون المسلمين من كل بلاد الروس ليقرؤوا عليهم هذه النشرات، التي كانت تحمل دعوات جريئة إلى الإصلاح الديني، والتمسك بمبادئ الإسلام، واليقظة لما يحاك ضد الإسلام من جانب الحكام الروس وغيرهم من حكام الدول الاستعمارية.

ولم تقتصر هذه الرسائل والمنشورات على اللغة القاذانية، بل أخذ يدعو باللغة العربية، ويكتب الرسائل الموجهة إلى المسلمين في المشرق العربي يتحدث فيها عن مآسي المسلمين الروس وما تمارسه السلطات الروسية من ظلم واضطهاد وتنكيل بالمسلمين.

المهاجر بالدعوة:

ولأنه كان يؤمن بأن الإسلام دين عالمي، وأن الداعية الحق للإسلام يجب أن

يجعل العالم أجمع مكاناً لرسالته، رأى الشيخ أن يقوم بالدعوة للإسلام في البلاد البعيدة التي لم تصلها أضواء الهداية المحمدية بعد، فتعددت رحلاته منذ عام ١٩٠٥م إلى اليابان وكوريا والصين وسنغافورة، وجزائر ما وراء الهند، وتركستان ومنشوريا، يدعو الناس إلى دين الإسلام، دين المستقبل، ذلك الدين الذي كان أول دين يهتف بالحرية والإخاء والمساواة.

لم تكن مهمته سهلة ميسورة، وإنما كان الطريق مليء بالصعاب التي لا يقدر على تخطيها إلا أصحاب الإيمان الراسخ والعقيدة الصادقة الذين عاهدوا الله على نصرة دينه. وكان «الشيخ عبدالرشيد» أحد هؤلاء الدعاة الصادقين، الذين لا يبتغون إلا رضوان الله سبحانه وتعالى، فتخطى هذه العقبات ببسالة نادرة، وكان يُنفق على رحلاته من ماله الخاص وكان الله حليفه، فيهدى على يديه بنور الإسلام الآلاف في كل بلد كان يذهب إليه.

ولمس المجاهد الكبير من بشائر التوفيق ما زاده إيماناً وحماسة لرسالته التبشيرية، حتى ذعُرت منه دوائر التبشير المسيحي بآسيا، واعتبرت هذا الشيخ الفرد خطراً على جمعياتها التبشيرية. فقد كان وحده - دون أن تقف وراءه مؤسسة أو دولة تعينه وتمده بالمال - ندا لهذه المؤسسات ذات الميزانيات الضخمة المدعومة من مجلس الكنائس العالمي وحكومات الدول الأوربية التي تساندها. استطاع هذا الشيخ بجهاده في نشر الدعوة الإسلامية في هذه لبلاد أن يؤكد للعالم أجمع، أن الإسلام أقوى من أي سلاح، وأكبر من أية أموال، فهو ينتشر فقط بقوة مبادئه وصدق غاياته وهدفه الأسمى، فهو دين صالح لكل زمان ومكان يصلح دنيا البشر وآخرتهم في سماحة ويسر، بعيدا عن أي تعصب، فلم يكن الشيخ عبدالرشيد يملك في جهاده في هذه البلاد البعيدة غير سلاح المنطق والإقناع والدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة، ومجادلة الناس بالتي هي أحسن(*).

(*) د. محمد رجب البيومي، «النهضة الإسلامية في سير أعلامها المعاصرين»، الجزء الأول، فبراير ١٩٨٠، مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر، ص٦١.

شيخ واحد:

بعض القساوسة من مبشري المسيحية في الصين أفزعه سريان دعوة «الشيخ عبدالرشيد» بين أوساط الصينيين، فكتب إلى وزارة الخارجية في بلاده هذه البرقية: «انتبهوا.. المسيحية تعاني هنا كثيرا من جهود عدو يزحف عليها بقوته.. أخبرونا ماذا نفعل؟».

انزعجت وزارة الخارجية، وأرسلت إلى عميلها في الصين تقول: «أفزعتنا برقيتكم، نريد المزيد من التفاصيل عن قوة هذا العدو، ومدى نفوذه الحربي، وما القوى التي تقف خلفه.. أفيدونا بسرعة حتى يمكن وضع خطة للتحرك ومواجهة هذا الخطر الذي تتحدثون عنه».

ويرد عليهم قائلا: «هذا العدو مجرد شيخ واحد اسمه عبد الرشيد!»

واستمر هذا الشيخ الأمة يبشر بالدين السمح الرحيم حتى أسلم على يديه المئات والآلاف، وحتى أصبح الإسلام ديناً معترفاً به في بلاد الشمس المشرقة، وقد ارتفعت في طوكيو المآذن تردد في اليوم الواحد خمس مرات هتاف الإسلام الخالد: الله أكبر الله أكبر، أشهد أن لا إله إلا الله.

حمل السلاح:

لم يقتصر جهاد «الشيخ عبدالرشيد» على ميدان الوعظ والإرشاد والكتابة في الصحف، فإلى جانب المنبر والقلم كان مجاهداً يحمل السلاح، فقد كانت نصرة الإسلام هي غايته الكبرى، عندما احتل الإيطاليون ليبيا، ذهب إلى هناك يجاهد مع إخوانه الليبيين سنة ١٩١٢، وله في هذا الجهاد بطولات رائعة. وحين قامت الحرب العالمية الأولى، حمل السلاح إلى جانب الجيش العثماني في جبهة القوقاز، وإلى ألمانيا ذهب أثناء الحرب لمتابعة أحوال الأسرى المسلمين.

وقد حضر «الشيخ عبد الرشيد» إلى القاهرة وأقام فيها فترة، وكان مجلسه يجمع رواد من مختلف المذاهب والمشارب الذين اجتمعوا على الإعجاب به

والعجب منه، فمنهم من جاء ليستمع إلى الشيخ الرحالة الذى يتحدث عن جماعات المسلمين ويصف أدواءهم وأدويتهم، فقد ركب البر والبحر ليدعو إلى الله، ومن منصت إلى عجائب الأسفار وغرائب الأوطان. ومن مكبر لهذا الشيخ الوقور، الذي لا تقعد به السن عن الأسفار البعيدة، وقد أتاح له كل هذا أن يصدر مؤلفه: «عالم إسلام» يجمع فيه مشاهداته الشخصية البصيرة في شتي ربوع الإسلام، في آسيا وأوروبا وأفريقيا، ويصف من أدواء المسلمين وعللهم ما لم يتيسر الإلمام به إلا للقلائل..

وعن نفسه كتب يقول: «ما تركت بقعة من العالم الإسلامي إلا زرتها وطوفت في أرجائها، جبت ما بين أقصى الشرق والمغرب الأقصى، ولم أدع موطناً للمسلمين في آسيا وأوربا وأفريقيا إلا يممته، وتعرفت ماضيه وحاضره، وقد أرهقتني الأسفار الكثيرة المتتالية، ومضيت في طريقي رغم كل شيء، فقد كان هناك نداء لا ينقطع من أعماق نفسى ألا تقف، تقدم، امض في سبيلك، نداء غيرتي على ديني، تلك الغيرة التي تصطدم كالبركان بين جوانحي فلا أطيق وقوفاً، ولا أثبت في مكان، لا يقيدني حب النفس والوطن والأهل والولد، فكل هذه الأشياء لم تكن لتثنينى عن عزمي، ولا تعدل بي عن مقصدي، لا أبغي إلا وجه الله، ذلكم كل أملي لا أبغي سواه».

هكذا ظل المجاهد الكبير «الشيخ عبدالرشيد إبراهيم» طوال عمره المديد حتى توفي سنة ١٩٤٤م، يوم ٣١ أغسطس (١٣٦٤هـ)..